

الإعجاز العلمي لكتاب الله

700 آية من القرآن الكريم احتوت على عجائب الدنيا كلها

يرزخ القرآن الكريم بالعديد من الآيات التي تشير الي الكون وما به من كائنات (أحياء وجمادات)، وإلى صور من نشأتها ومرآجل تكوينها، وإلى العديد من الظواهر الكونية التي ناصحها، والسنن الإلهية التي تحكمها، وما يستتبعه كل ذلك من استخلاص للعبرة ونفهم للحكمة، وما يستوجبه من إيمان بالله، وشهادة بكمال صفاته وأفعاله، وهو – سبحانه وتعالى – الخالق البارئ المصور الذي أبدع الخلق ويعلم وقدره وحكمة لا تحدها حدود، ولا يلبيا حقاها وصف.

وقد أحصى الدارسون لهذه الإشارات الكونية في كتاب الله ما يقدر بحوالي ألف آية صريحة، بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقرب دلالاتها من الصراحة، ويودأم الساع دائرة المعرفة الإنسانية، وتكرار تأمل المخاملين في كتاب الله، وشذير المتدبرين آياته – جيلا بعد جيل، وعصرأ بعد عصر – لا ينك العلماء والمختصصون يكتشفون من حقائق الكون الثابتة في كتاب الله ما يؤكد على تحقق الوعد الإلهي الذي يقول فيه ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿ سَتَرَهُمْ آيَاتُنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت:53).

ويبيهي أن يتباين موقف العلماء من تلك الإشارات الكونية في كتاب الله بتباين الأفراد وخلفياتهم الثقافية وإزمتهم، وباتساع دائرة المعرفة الإنسانية في مجال الدراسات الكونية التي تعرف اليوم باسم دراسات العلوم البحتة والتطبيقية من عصر إلى عصر. وأول من بسط القول في ذلك كان الإمام الغزالي (ت505هـ) في كتابيه «أحياء علوم الدين» و«جواهر القرآن» والذي رفع فيهما شعارات عديدة منها أن القرآن الكريم يشمل العلوم جميعا، وأن من صور إعجاز القرآن الكريم اشتماله على كل شيء، وأن كل العلوم تنشعبت من القرآن الكريم، حتى علم الهيئة، والنجوم، والطب إلى آخر ما ذكر.

وتبع الإمام الغزالي في ذلك كثيرون من العلماء المعاصرين الذين أضافوا إضافات أصيلة إلى هذا الموضوع مما أدى إلى «بروز المنهج العلمي في تفسير القرآن الكريم»، والذي يعتمد في تفسير الإشارات الكونية الواردة في كتاب الله على ضوء من معطيات العلوم البحتة والتطبيقية، مع تفاوت في ذلك من عصر إلى عصر.

ويعتبر تفسير الرازي المعنون «مفاتيح الغيب» أول تفسير يفيض في بيان المسائل العلمية والفلسفية، خاصة ما يتعلق منها بعلم الهيئة، وغير ذلك من العلوم والفنون التي كانت معروفة في زمانه، والتي كان هو على دراية بها.

أما تفسير الشيخ طنطاوي جوهرى والمعنون «الجواهر في تفسير القرآن الكريم» فيقع في خمسة وعشرين جزءا كبيرا، حاول فيها الشيخ – يرحمه الله – تفسير القرآن الكريم تفسيرا يتجاوب مع روح العصر وما وصلت إليه المعارف – الإنسانية في مجال دراسات الكون وما فيه من أجرام سماوية، ومن عوالم الجمادات والأحياء ومن الظواهر الكونية التي تصاحبها والسنن الإلهية التي تحكمها؛ ليبين للقارئ أن كتاب الله الخالد قد أحاط بالكون في تفصيل وبيان وإيضاح غلغل عنه كثير من السابقين، وأنه بحق يتخطى على كل ما وصل وما سيصل إليه من معارف.

هذا وقد نعى الشيخ الجوهري – يرحمه الله – على علماء المسلمين اهمالهم للجانب العلمي في القرآن الكريم، وتركيز جهودهم على الجوانب البيانية والفقهية فقط بقوله: «لمأذا ألف علماء الإسلام عشرات الألوف من الكتب في علم الفقه، وعلم الفلك ليس له في القرآن الكريم إلا آيات قليل لا تصل إلى مئة وخمسين آية؟ لمأذا كثر التأليف في علم الفقه، وقل جدا في علوم الكائنات التي لا تكاد تخلو منها سورة ؟! ؛ ولذا فإننا نجد في مطلع تفسيره يتوجه ببدء إلى المسلمين يقول فيه: «يا أمة الإسلام، آيات معدودات في القرآن – يقصد آيات الميراث – اجتذبت فرعا من علم الرياضيات، فما بالك يا أمة تلك البيعمائة آية فيها عجائب الدنيا كلها.. هذا زمان العلوم، وهذا زمان ظهور الإسلام.. هذا زمان رفيع، يا ليت شعري، لماذا لا تعمل في آيات العلوم الكونية ما فعله أبائنا في علوم الميراث ؟!»، ثم يضيف: «أن نظام التعليم الإسلامي لابد من ارتكازه علوم البلاغة ليست هي نهاية علوم القرآن الكريم، بل هي علوم لفقه، وما كتبه اليوم (يقصد في تفسيره) علوم معناه...».

ولم يكتف الشيخ طنطاوي جوهرى في تفسيره بتتبع الآيات واستنتاج معانيها وفق ما ارتآه فيها من اشارات إلى مختلف الدراسات الحديثة؛ بل انه قد استعان في هذا التفسير – الفريد من نوع – بكثير من صور النباتات والحيوانات والظواهر الكونية، والوسائل التجريبية، كما استخدم الآراء الفلسفية عند مختلف المدارس الفكرية وكذلك الأرقام العددية التي ينظمها «حساب الجمل» المعروف.

وقد اعتبر المفسرون من بني عصره ذلك المنهج العلمي في التفسير – كما اعتبر من قبل- جنوحا إلى الاستطراد في تناول بعض آيات القرآن الكريم على غير مقاصدها التشريعية والإيمانية؛ استنادا إلى الحقيقة المسلمة: أن القرآن الكريم لم يات لكي ينشر بين الناس الفوائن العلمية ومعادلاتها، ولا جداول المواز وخصائصها، ولا قوائم بإسماء الكائنات وصفاتها؛ وإنما هو في الأصل كتاب هداية، كتاب عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات، وهي ركائز الدين التي لا يستطيع الإنسان أن يضع لنفسه فيها أية ضوابط صحيحة.

والقرآن العظيم حين يلفت نظر الإنسان إلى مختلف مظاهر هذا الوجود اثما يعرض لذلك من قبيل الاستدراك على أدرة الخالق العظيم وعلمه وحكمته وتدبيره، ومن قبيل إقانة الحجة البينة على الجاحدين من الكافرين والمشركين ومن قبيل التأكيد على احاطة القدرة الإلهية بالكون وبكل ما فيه، وعلى حاجة الخلق في كل لحظة من لحظات الوجود إلى رحمة ذلك الخالق العظيم وورعائه.



والمودة، فهي عن النقاطع والقدائر. نعم قد يحدث أن نشعر بإسائة موجهة إليك، فتحنن لها أخاه فوق ثلاث..، وفي رواية: «لا يحل لمؤمن أن يهجر مؤمنا فوق ثلاث، فإن مرت به ثلاث فليقلعه فليسلم عليه. فإن لم يرد عليه فقد باء بالإثم، وخرج المسلم من الهجرة، وهذا القلوبيت فترة نهدأ فيها الحدة وينفث فيها الغضب، ثم يكون لزاما على المسلم بعده أن يواصل إخوانه، وأن يعود معهم سيرته الأولى، كان القطيعة غيمة، ما إن تجمعت حتى هبت عليها الريح فبددتها، وصفا الأفق بعد غيوس.

والإنسان في كل نزاع ينتشب، أحد رجلين إما أن يكون ظالما، وإما أن يكون مظلوما، فإن كان عاديا على غيره، ناقضا لحقه، فينبغي أن يقطع عن غيه وأن يصلح سيرته، وليعلم أنه لن يستل الضغن من قلب خصمه، إلا إذا عاد عليه بما يظلمته ويرضيه. وقد أمر الإسلام المرء والحالة هذه أن يستصلح صاحبه ويطلب خاتره قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض أو من شيء فليحللته منه اليوم، من قبل ألا يكون دينار أو درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه». ذلك نصح الإسلام لمن عليه الحق أما من له الحق فقد رغب إليه أن يدين ويسمح، وأن يمسح أخطاءه الأس بقبول المعذرة، عندما يجيء له أخوه معذرا ومستغفرا، ورفض الاعتذار خطأ كبير. وفي الحديث: «من اعتذر إلى أخيه المسلم فلم يقبل منه كان عليه مثل خطيئته صاحب عظم». وفي رواية: «من تفضل إليه فلم يقبل لم يرد عليّ الجحش»، وبهذا الإرشاد المبين لتطهير جميعا يحارب الإسلام الأحقاد، ويقفل جروتمتها في أهد، ويرتقي بالمجتمع المؤمن إلى مستوى رفيع، من الصداقات المتبادلة، أو المعاملات العادية.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الشيطان قد يشن أن يعيده المصلون في جزيرة العرب، ولكنه لم يياس من التحريش بينهم..» ذلك أن الشر إذا تمكن من الأفئدة فتناثر ودها، وانكسرت زجاجتها ارتد الناس إلى حال من القسوة والعناد، يقطعون فيها ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض.. وقد تيقظ الإسلام ليوادر الجفاء، فلاحقها بالعلاج، قبل أن تستفحل وتستحيل إلى عداوة فاجرة، والمعروف أن البشر متفاوتون في أمرجنتهم وأفهامهم، وإن التفاهم في مبادئ الحياة قد يتولد عنه ضيق وانحراف، إن لم يكن صدام وتباعد. ولذلك شرع الإسلام من المبادئ ما يرد عن المسلمين عوادي الانقسام والفتنة وما يمسك قلوبهم على مشاعر الولاء

الإسلام ويحاذر وقوعه، ويرى متعه أفضل القربات. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا أخيركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى! قال؟ إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هو الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين».

ربما عجز الشيطان أن يجعل من الرجل العاقل عايد صتم، ولكنه وهو الحريص على إغواء الإنسان وإبراده المهالك لن يعجز عن المباحدة بينه وبين ربه، حتى يجهل حقوقه أشد ما يجهلها الوثني للخزف، وهو يحثل لذلك بإيقاد نيران العداوة في القلوب. وإذا اشتعلت أستمع الشيطان برويتها وهي تحرق حاضر الناس ومستقبلهم وتلتهم علاقتهم وفضائلهم:

سلامة الصدر من الأحقاد ليس أروح للمرء، ولا أطهر لهوومه، ولا أقر لعينه من أن يعيش سليم القلب، مبرا من وساوس الضغينة، وتوران الأحقاد. إذا رأى نعمة تنساق إلى أحد رضي بها، وأنحس فضل الله فيها وفقر عبادہ إليها، وذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم ما أصعب بي من نعمة أو يأحد من خلقك فمكك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر»، وإذا رأى أذى يلحق أحدا من خلق الله رني له، ورجا الله أن يفرج كربہ ويغفر ذنبه، وذكر مناشدة الرسول ربه: إن تغفر اللهم تغفر جما وإني عبد لك ما لنا، وبذلك يحيا المسلم ناصع الصفحة، راضيا عن الله وعن الحياة، مستريح النفس من نزعات الحقد الأعمى، فإن فساد القلب بالضغائن داء عياد، وما أسرع أن يتسرب الإيمان من القلب المغشوش، كما يتسرب السائل من الزئاء المتلثوما.

ونظرة الإسلام إلى القلب خطيرة، فالتقلب الأسود يفسد الأعمال الصالحة ويطمس بهيجتها ويعبر صلوها، أما القلب المشرق فإن الله يبارك به ويكرهه، وهو إليه بكل خير أسرع: عن عبدالله ابن عمرو قيل: يا رسول الله أب الناس أفضل؟ قال: صدوق كل مخوم القلب صدوق اللسان، قيل: صدوق اللسان تعرفه، فما مخوم القلب؟ قال: هو التقى التقى، لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد..، ومن ثم كانت الجماعة المسلمة حقا هي التي تقوم على عواطف الحب المشترك، والود والشائع، والنعاهون المتبادل، والمعاملة الدقيقة، لا مكان فيها للفرديّة المتسلطة الكلود، بل هي كما وصف القرآن: «والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم». إن الخصومة إذا نمت وغارت جذورها، وتآرعت أشواكها شلت زهرات الإيمان الغض. وأدوات ما يوحى به من حنان وسلام، وعدئل لا يكون في أداء العبادات المفروضة خير، ولا تستفيد النفس منها عزيمة. وكثيرا ما تطيش الخصومة بالباب ذوبها، فتتدلى بهم إلى الفتراف الصغائر المسفطة للمرودة والكناير الموجبة للعتة، وعن السخط تنظر من زاوية داكنة، فهي تعمى عن الفضائل وتضمخ الدرائل وقد يذهب بها الحقد إلى التخليل والفتراض الأكاذيب وذلك كله مما تسخطه

أساليب المشركين في محاربة الإسلام

محاولات فاشلة لتشويه دعوة الرسول

قال: ما هو يشاعر، قد عرفنا الشعر برجزه وقرضه ومقبوضه

وميسوطه، فما هو بالشعر.

قالوا: فنقول ساحر.

قال: ما هو يساحر، لقد رأينا السكار وسحرهم، فما هو بئفله، ولا عقه.

قالوا: فما نقول يا أبا عبيدشمس؟

قال: والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لجنحة، وما ائتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول لأن نقولوا: ساحر، فقولوا: ساحر يفرق بين المرء وبين أبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته.

فأنزل الله تعالى في الوليد: (نَزَّهِي وَمَنْ خَلَقْتَ وحيدا، وجعلتَ له مالا مَمْدُودا، ويُنِينَ شهودا، ومَهَّدتَ له تمهيدا، ثُمَّ نَطَعْتَ أَنْ أَرِيدَ، كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِأَيَاتِنَا عَنِيدا، سَأَرْهَقُهُ صَغُودا، إِنَّهُ كَفَرٍ وَقَدِر، قَتَلَتْ كَيْفَ قَتَر، ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَتَر، ثُمَّ نَظَرَ، ثُمَّ عَبَسَ وبَسَرَ، ثُمَّ أَدْبَرَ واستَكْبَرَ، . فقال إن هذا

قام مشركو مكة بمحاولة تشويه دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولذلك نطقت قريش حربا إعلامية ضده لتشويهه، فأدما الوليد بن المغيرة، حيث اجتمع مع نفر من قومه، وكان ذا سن فيهم، وقد حضر موسم الحج فقال لهم: يا معشر قريش إنه قد حضر الموسم، وإن وقود العرب ستقدم عليكم، وقد سمعوا يأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا، ولا تختلفوا فيكذب بعضهم بعضا، ويرد قولكم بعضه بعضا.

فقالوا: فإنت يا أبا عبيدشمس، فقل لنا رأيا نقول به.

قال: بل ائتم قولوا اسمع.

فقالوا: نقول كاهن.

قال: ما هو بكاهن، لقد رأيت الكهان فما هو بزمنة الكاهن وسجعه.

فقالوا: نقول مجنون.

قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو تخنقه، ولا تخالجه ولا وسوسته.

فقالوا: نقول شاعر.